اللغة
العربية
وآدابها

الطيف فى شعر البحترى

" الصور والدلالات "

د. ناهد أحمد السيد الشعراوى

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

امتدح القدماء تفوق البحترى فى وصف الطيف، وعدّه بعضهم نابغة الشعراء فى وصفه للطيف، حتى قيل "طيف البحترى"[١]. ونقل الآمدى عن شيوخه من أهل العلم بالشعر مدحهم للبحترى بأنه «أشعر الناس وألهجهم بذكر الخيل والخيال»[٢]. وإن كان الآمدى قد وقف فى كتابه الموازنة عند نصوص البحترى فى وصف الطيف، فقد أفرد لها الشريفُ المرتضى كتابًا فى أوصافِ طيف الخيال زوّده بمادةٍ غزيرةٍ من شعر البحترى، وارتكز عليها أساسًا فى كتابه: طيف الخيال[٣]. كما أشاد ابن رشيق القيروانى بتفوق البحترى فى وصف الطيف، قال: «والبحترى أرق الناس نسيبًا وألمحهم طريقة ... لاسيما إذا ذكرَ الطيف، فإنه البابُ الذى شُهِرَ به»[٤]. وذكر أبو هلال العسكرى أن الإسلاميين والمحدثين أخذوا أكثر معانيهم فى الخيال والطيف عن قيس بن الخطيم وعمرو بن قميئة، وقد استخدمه فى الغزل البعيث ومسلم بن الوليد وأبو تمام ودعبل وابن الرومى، إلا أن أحدًا من هؤلاء لم يحقق ما حققه البحترىُ من تفوق وشهرةٍ[٥].

وحقًا فقد أكثر البحترى وأغزر من القول فى الطيف، وكان مشغولاً بتكرار القول فيه، لهجًا بإبدائه وإعادته، كما قال عنه الشريفُ المرتضى[٦].

إن الخيال الخصب للبحترى قد مكّنهُ من الإبداع فى وصفِ الطيفِ، سواء أكان ذلك: فى مفتتح القصائد أم خلال أبيات المقدمة، وإن المتأملَ لديوانه ليدهشُ لهذا الحشد الهائل من أبياتِ الطيف، مما يُعدُّ ظاهرةً مميزةً فى شعره تستحقُ دراسة إغراقه المتكرّر فى معايشةِ طيفِ الخيال، كما تستحق أن يُراجع معها واقع الشاعر فى حياته مقارنًا بواقعه النفسى العام، وهل كانت الفجوة لديه عميقة بين الحلم والواقع! فتعدُّ زيارةُ الطيفِ فى عالم الأحلام تعويضًا عن يأسه من اللقاء فى دنيا الواقع؟؟

وإن مقدار الكثافة الذى تميزت به أشعاره فى الطيف، ليستحق أيضًا أن نتوقف عنده، لنتأمل صورَه الغزيرة التى يحشدُها فى وصف الطيفِ، بملامحها،

ومميّزاتها، وأجزائها، وطرائقها. وكذلك المحبوبة، التى تطلُّ عليه عبر طيفه الليلى، كيف رسمها؟ وما ملامحها؟ وهذه الزورة التى كان يرتقبُها فى نفسه، ويكررُ ذكرها للطيف فى شعره! كيف كانت؟ وكيف تبدأ؟ ومتى تبدأ؟ ومتى تنتهى؟ وكيف حاله هو بعدها؟

وقد وُلد البحترى فى البادية، فى بلدة منبج فى شمال الشام بين حلب والفرات، أو فى قرية قريبة منها اسمها زرْدَقنة[٧]، وقضى البحترى أيام صباه الأولى فى بادية منبج بين العرب الطائيين، الذين كانوا منتشرين بها.

وهذه المرحلة الأولى فى حياته -التى استمرت قرابة خمسة وعشرين عامًا، إلى أن رحلَ الشاعرُ عن الشام إلى بغداد- ظل صداها فى مخيّلته، وفى شعره. فلاشك أن نشأته الأولى فى البادية أتاحت له الاتصال القريب بلغة البدو وتقاليدهم وتراثهم الفنى والفكرى، وهى مرحلة صدر شبابه، المرحلة الشامية الأولى. ورغم اتصال البحترى بالحياة الحضارية فى العراق وفى فارس بعد هذه المرحلة، إلا أن تأثره بالحضارة لم يغيّر من أعرابيته، بل ظل الشاعر كما وصفه الآمدى : «أعرابىُّ الشعر، مطبوعٌ، وعلى مذهبِ الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف»[٨].

وارتباطُ عاطفةِ البحترى بعلْوة الحلبية معروف[٩]، والكثير من غزلياته أنشدها إما فى وصفها وإما فى وصف طيفها، الذى يرفرفُ عبر صحراء الشام ليزوره فى العراق، كما يُصرّحُ باسمها فى كثير من قصائده، كقوله :

تناءتْ دارُ عَلْوَةَ بعد قُرب فهل ركبٌ يبلّغُها السلاما؟[١٠]

وقوله :

أخيالَ علوَة كيف زرت وعندنا

أرقٌ يشرّدُ بالخيال الزائرِ!؟[١١]

وقوله :

طيــفٌ لعلوةَ ما ينفكُّ يأتينى

يصبُو إليَّ على بُعْدٍ ويُصبينى[١٢]

ونتبينُ من شعره أن أصداءَ هواه الأول لفتاته الشامية الحلبية "علْوَة"- في مرحلةِ صباه بالشام قد استمرت تتردد في نفسه رغم ترحاله في الأرجاء الشاسعة للدولة، واتصاله بالسادة والقادة والأمراء، بل اتصل أيضًا بالقصر العباسي وأخذ يمدح خلفاءه.

فطيفُ علوة كان يُلاحقه ويُلحُّ عليه كما ذكر هو في شعره، قال[١٣] :

خيـــالٌ يعتريـــنى فى المنام ... لـكرْى اللحظِ فاتنةِ القوامِ
لعَلْوَةَ ... إنها شـــجنٌ لنفسى ... وبلبـــالٌ لقلبى المســـتهامِ
إذا سَفَرَتْ رأيتَ الظَّرْفَ بحتًا ... ونارَ الحُسنِ ساطعةَ الضِّرامِ

ولئن كانت الحياة قد باعدت بينه وبين حبيبته، فإنه يرسل لها على البعد التحايا والأشواق، ويَسْعدُ بلقياها في عالم الأحلام، فهي حبه الأول في صباه بحلب ولا تزال تعلقُ بنفسه وقلبه، يقول فيها أيضًا[١٤] :

قُلْ للسحاب إذا حدتْهُ الشمألُ ... وسرى بليـلٍ ركبُـهُ المتحمِّـلُ
عرِّجْ على "حلبٍ" فحيَّ مَحَلَّةً ... مأنوســـةً فيهـا لعَلْوَةَ منـــزِلُ

ويذكر عهد علوة أيضًا في مقدمة إحدى مدائحه في المتوكل[١٥] :

عهدٌ لعلوةَ باللِّوى قد أشـكلا، ... ما كان أحسـن مُبتَداهُ وأجمَـلاَ !
أنَّـى لياليَنا هُنَاك وقد خَـلاَ ... مِنْ لَهْونا في ظِلِّها ما قـد خَلاَ؟

ويقول في مقدمة مِدحة أخرى من مدائحه في المتوكل[١٦] :

شوق إليك تفيضُ منه الأدمعُ ... وجوىً عليكَ تضيقُ منه الأضلُعُ
وهـــوى تجدِّدُه الليالى كلما ... قَدُمَتْ وتُرجِمُهُ الســـنونَ فيرجعُ

وعلى الرغم من أنه لم يذكر علوة صراحة في البيت السابق،إلا أنها تمثل هواه القديم، الذي تجدده الليالي وترجعه السنون.

وفي مقدمة احدى مدائحه في المعتز يذكر العَتْلَ في هواه لعلوة، ويرى أن

ذلك الحب من صميم أخلاقه، ويتمنى لو أحب اللائمون ليعذروه[١٧] :

بودى لو يهوى العذولُ ويعشقُ فيعلمَ أسبابَ الهوى كيف تَعلقُ

أرى خُلُقًا حبى لـ "عَلْوَةَ" دائمًا إذا لم يَـــدُمْ بالعاشقينَ التخلُّقُ

وقد ردد البحترى كثيرًا فى شعره أن الطيف الذى يرفرف إليه مجتازًا المفاوز والهضاب حتى يطرقه كان لفتاة شامية، حين كان بالعراق، مما يُرجح أن شعره فى الطيف كتبه فى المرحلة العراقية، التى بدأت منذ رحيله عن الشام إلى بغداد، واستمرت قرابة خمسين سنة، حتى غادر العراق عائدًا إلى منبج عودته الأخيرة. وقد تميزت هذه المرحلة من حياة البحترى بالعطاء الفنى الخصب، إذ نظم فيها أكثرَ قصائدِه، وتردَّد فيها على فارس وعلى الحجاز، لكنه قضى أكثر سنواتها فى العراق، من ذلك قوله[١٨] :

زار وهنًا من الشآم فحيا مستهامًا صبا بأهلى "العراق"

وقوله[١٩] :

أمَا مُعِينٌ على الشوقِ الذى غَرِيَتْ

به الجوانِـــحُ، والبيـــنِ الذى أفِدَا؟

كيف اللقاءُ، وقد أضحَتْ مخيِّمةً

بالشـــامِ لا كَثُبًـــا مِنَّا ولا صَـــدَدا

وقوله[٢٠] :

ذكَّرْتَنَا عهد "الشـآم" وعَيْشَـــنا

بين القِنَـانِ السُّـــودِ والهَضَبـــاتِ

وقوله[٢١] :

سرى من أعالى "الشام" يجلُبُهُ الكرى

هُبوبَ نسيمِ الروض تجلُبُهُ الصَّبَـــا

إن تواردَ شعر الطيف بديوان البحترى بهذا المقدار من الكثافة، وبهذا التعمق فى وصف المحبوبة خلال كثير من قصائده، يؤكدُ ما ذكره بعض الباحثين أن

البحترى يُعدُّ من الشعراء المعروفين بوضوح نفسياتِهم فى شعرهم، وبالقدرةِ على التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم من خلال شعرهم أيضًا[٢٢].

وإن قصيدةَ البحترى السينية التى نظمها فى وصف إيوان كسرى، لتشى بحالةِ نفسه التى كانت تطفح بالسأم، واليأس، والرغبةِ فى التأسى والسمو على الأحداث.

وهذه القصيدةُ قد حمّلها الشاعرُ من الإشاراتِ والدلائلِ ما ينبئنا صراحة بما فى أعماقه، ويصراع ذاته، وبمحنتِه النفسيةِ التى بلغت به قمة الضيق، مما آل إليه حاله فى معيشتِه آنذاك.

فأبيات القصيدة تُعَدُّ ترجمانًا لنفسه وترجمانًا لعصره، وتدل على أن الشاعر نظمَها وهو يشعرُ بغربةٍ نفسيةٍ، وبعدم المقدرةِ على التكيُّفِ مع المجتمع من حوله. وقد ضاق به المقامُ، وضاقت المعيشةُ، وساءت العلاقات، وتدهورت حالتُه هو، فرحل إلى مكانٍ يلتمسُ فيه عزاءً لنفسه، وهو إيوانُ كسرى.

لقد وجد البحترى فى الإيوان صورةً لصراعاتِه هو إذ عاكستْه الأيامُ، فنكستْه من أحسن الأحوال إلى أسوئها. ولكنه رغم ذلك يتجلدُ ويتشامَخُ. يقولُ[٢٣]:

صُنْتُ نَفْسِى عَمَّا يُدَنِّسُ نفسى وترفَّعْتُ عن جَدَا كلِّ جبّسِ
وتماسَكْتُ حينَ زَعْزَعَنِى الدَّهْـ ـرُ التماسًا منهُ لتعسِى ونكْسِى
بُلِّغَ من صُبَابَةِ العَيْشِ عِنْـدِى طَـنَّفَتْها الأيامُ تطفيفَ بَخْـسِ
وبعيدٌ ما بيـنَ وارِدِ رَفْـهٍ عَـلَلٍ شُـرْبُهُ، ووَارِدِ خِمْـسِ

ونرى الشاعر يحمّل بيتَه الأخيرَ حسرتَه على فراق حياةِ البساطة، والحرية، والفطرة التى كان يحياها بالبادية فى الشام - موطنه الأصلى- وقد تركها طامحًا وطامعًا إلى التقرُّب من الخلفاء، فارتحل إلى العراق مركز الخلافة وحاضرة الدولة.

وقد مثّل لحياةِ الحرية التى كان يحياها بالبادية حيث الفطرة السليمة "بوارد

الرقة" الذى يردُ الماءَ متى شاء، كما مثل لحياةِ التكلف فى المدن والتقيُّد بمظاهر الحضارة "بوارد الخمس"، وشتان ما بين الحالين.

ونرى البحترى فى البيت التالى يعضُّ إصبعَ الندم أن غادرَ الشامَ وهى مسقطُ رأسه، وتطلّعَ إلى مركز الخلافةِ، فانتهى إلى صفقةٍ خاسرةٍ. يقول:

واشتِرَائِى "العِراقَ" خُطَّةُ غَبْنٍ بَعد بَيْعِى "الشّامَ" بَيْعَةَ وَكْسِ

إن البحترىَ ينشرُ خلال القصيدةِ خواطرَه النفسية برفض الواقع، والتمرُّدِ عليه والحنين للماضى وللشام منشئِهِ. كما يُبدى ضيقه بحياته بالعراق، وتبرُّمًا بما حوله من الأوضاع الفاسدة، ومَنْ حوله منْ اللئام.

كما يُبدى الشاعرُ قلقه وخوفه من الأيام، ويسخَطُ على زمانه الذى يرفعُ اللئيمَ ويَحُطُّ من قدر الكريم، يقول :

وكأنَّ الزمانَ أصبحَ محمُـو لاً هَوَاهُ مع الأخَسِّ الأخَسِّ

وتشيعُ فى القصيدة نزعة قوية إلى تأثيم الزمان من خلال تلك الصور الموحيةِ : "زَعزَعنى الدَّهرُ"، "بَلَغ... طقّتها الأيّامُ"، "الليالى جَعلتْ فيه مأتمًا بَعْدَ عُرُس"، "عَكَسَتْ حَظَّهُ الليالى"، "وعليه كَلكَلَ من كَلاكِلِ الدَّهرِ مُرْسِى".

إن نزعَةَ البحترى فى السُّخْطِ على الزمان لهى صدىً لنفسيته التى تقلّبتْ عليها أحداثٌ كثيرةٌ آلمتها ولذعتها فطبَعَتْها بطابع السُّخْطِ.

ويلمّحُ البحترىُ أيضًا خلال هذه القصيدةِ إلى أنَّ نفسَه القلقة صارت تتعلقُ بالماضى وبالرؤى وبالأوهام. فما تجسيدُهُ لصورةِ معركة "أنطاكية" المنقوشة على جدران القصر إلا نموذجًا لذلك الخيال المسيطر على عقله، يقول:

وإذا ما رأيتَ صورةَ "أنطا ... كيَّةَ" ارتعتَ بين "رُومٍ" و"فُرْسِ"
والمنايا مواثلٌ، و"أنوشِرْ ... وانَ" يُزْجِي الصُّفوفَ تحتَ الدَّرَفْسِ
في اخْضِرارٍ من اللِّباسِ على أصْـ ... ـفرَ يختالُ في صَبيغةِ وَرْسِ
وَعِراكُ الرِّجالِ بَيْنَ يَدَيْهِ ... في خُفُوتٍ مِنْهُم وإغْماضِ جَرْسِ
من مُشيحٍ يَهْوِي بعامِلِ رُمْحٍ، ... ومُليحٍ من السِّنانِ بِتُرْسِ
تَصِفُ العَيْنُ أنَّهُمْ جِدُّ أحْيَا ... ءَ لَهُمْ بَيْنَهُم إشَارةُ خُرْسِ

ثم يُصَرِّحُ فى البيتِ التالى أنه كان يتوهَّمُ ويتشكَّكُ فى تلك الصورةِ :

يَغْتَلِي فيهم ارْتِيابي حَتَّى ... تَتَقَرَّاهُمُ يَدايَ بِلَمْسِ

وأيضًا تشخيصُه للإيوان المُسْتَحِرّ، وما خلعه عليه من مشاعره، وأحزانه، وانفعالاتِه، قال :

وكأنَّ "الإيوانَ" مِنْ عَجَبِ الصَّنـ ... ـعةِ جَوْبٌ في جَنْبِ أرْعَنَ جِلْسِ

ثم يُبْدِى الشاعرُ حيرتَه وشكَّه وتساؤله عن هذا البناءِ العجيب: مَنْ صَنَعَهُ ؟ ومَن سكَنَهُ ؟ هل هم الإنسُ ؟ أم هم الجان ؟؟

يقول

ليس يُدرى أصَنْعُ إنْسٍ لجِنٍّ ... سَكَنُوهُ ، أمْ صُنْعُ جِنٍّ لإنْسِ

وهذه النفسُ المرتابةُ التى تذهب مع الخيال كلَّ مذهبٍ، تتجاوزُ ذلك إلى أن سيَطرَ عليها تداخُلُ الأزْمِنَةِ، وتداخُلُ الخيال مع الحقيقةِ، حتى كادا يختلطان على الشاعر. فها هو ذا يُصَرِّحُ بأوهامِهِ وأحلامِه وخيالاتِه، يقول :

وتَوَهَّمْتُ أنَّ "كِسْرَى أبَرْوِيـ ... ـزَ" مُعَاطِيٌّ، و"البَلَهْبَذ" أُنْسِي
حُلُمٌ مُطْبِقٌ عَلَى الشَّكِّ عَيْنِي ... أمْ أمَانٍ غَيَّرْنَ ظَنِّي وحَدْسِي ؟!

ويصرِّح هنا بالرُّؤَى التى تتعاقب وتحتشد على مُخيِّلتِه، يقول :

فكأنّى أرى المراتبَ والقوْ ... مَ إذا ما بلغْتُ آخرَ حبسى
وكأنّ الوفودَ ضاجينَ حسرى ... مِنْ وُقوفٍ خلفَ الزحامِ وخُنْسِ
وكأنّ القيانَ وسطَ المقاصيـ ... ـرِ يُرَجِّعْنَ بينَ حُوٍّ ولعْسِ

كما يصرح بتداخل الماضى فى الحاضر بذاكرته ووعيه، إذ يصف الماضى وكأنه حاضر. يقول :

وكأنّ اللقاءَ أوّلُ بِنْ أمْـ ... ـسِ، ووَشْكُ الفراقِ أولُ أمْسِ

إن هذه الإلمامة بالقصيدة السينية للبحترى، كانت لإثبات إحساس شاعرنا بغربته عن نفسه، وبغربته عن مجتمعه. لعدم مقدرته على التكيُّف مع أهل زمانه، وإحساسه بالغبن وبسيطرة ذوى الخسة إلى الحدّ الذى شهدَ فيه البحترىُّ مصرعَ الخليفة المتوكل بتدبير من ولده المنتصر، ومصرعَ الفتح بن خاقان معه- وكلاهما كان صديقًا للشاعر، ومن أولياء نعمته وسعادته- مما كان له أثرُهُ الكبيرُ فى نفس البحترىّ.

إن هذه القصيدةَ السينية لم تكن رحلة مكانية إلى الإيوان، ولكنها رحلة نفسية تمثّلُ حنينَ الشاعر إلى أيام نعيمه بقصور الخلافة العباسية، بما كانت تزفُّ فيه من نعيم الحضارة الفارسية فى شتّى صُوَرها، وقد عبّر فيها عن براعة الفنّ الفارسىّ فى البناء والتشييد والنقوش والرسم، كما عبّر أيضًا عن اهتمامهم بفن الموسيقى والغناء: "والبَلهْبَذ أنسى"، فالبلهبذ هو مُغنّى كسرى وعوّادُه. كما وَصَفَ جوَّ الطرب والمرح فى تصويره الجوارى الحسناوات المغنيات داخل قاعات القصر : "يُرَجِّعْنَ بين حُوٍّ ولعس".

وعلى ذلك، فنعتقدُ أنّ بروزَ صورةِ المحبوبةِ فى الطيفِ كان يُمثّلُ للشاعر بروزَ المعانى المثاليةِ الجميلةِ، والقيم النبيلةِ التى افتقدها فى واقعه الذى وصفهُ بقصيدته السينية كما أسلفنا. فيكونُ الطيفُ بذلك قد أتى فى شعره رمزًا لمشاعره وعواطفه التى تكمنُ فى أعماق ذاته.

وإن تكرار تصريح البحتري أن محبوبته التي تأتيه في الطيف شامية، قد يكون له دلالاته النفسية : ٦

- فهل كان تعلق الشاعر بالطيف رحلة رمزية للماضي بلذاذاته، التي افتقدها الشاعر بعد أن تغرَّب عن الشام؟؟
- أم كان تعلقه بالطيف وهمًا وعالمًا مكذوبًا، يحاول الشاعر خلاله أن يمهِّد لنفسه طريقًا آخر، يخرج فيه من مأزقه في واقعه المرير، الملئ بالصعاب والعراقيل، التي تحولُ بينه وبين تحقيق رغباته؟؟
- أم أن الشاعر بإصراره على تكرار ذكر الطيف الذي يطرقه، يريد أن يؤكد في نفسه حقيقة البعد، فما إن يهنأ بعض الوقت بمعايشة المحبوبة طيفًا حتى تغيبَ عن خياله، فيدرك أنه كان يعيش في خيال كبير.
- لا نستبعد أن استغراقَ البحتري في خيالاته مع الطيف، يشكل تجربة نفسية للشاعر، يحاولُ خلالها الهروبَ من الحاضر المتصدِّع الذي يلفظه ليعود إلى الماضي،الذي يتجاوبُ ويتفاعلُ معه في أعماق نفسه.«يقول برجسون: إن جوهر الإبداع هو الانفعال، ويعرِّف الانفعال بأنه هزة عاطفية في النفس، وأن هذا الانفعال ينشأ نتيجة لاتحاد مباشر بين العبقري وبين الموضوع الذي يشغله...وتكون مهمة الانفعال أن يثير الذاكرة فتنتثر الصور التي تملؤها، وعندئذ يأخذ من بينها»(٢٤).

وقد لَقِيَت تجربة الطيف عند الشاعر ملازمة لكثير من قصائده، مما يدل على أن التجربة اكتسبت عنده تكثيفًا شديدًا، وقد عبَّر الشاعر خلالها عن رحلته النفسية بلقائه هذا الطيف الذي يروي نفسَ العاشق في المنام، حتى صارا أليفين كما يقول: "أليفٌ أصطفيه ويصطفيني".

إن نفسَ البحتري المورَّقة المضطربة كان يُعلِّلها ويسعدُها زورةُ الطيفِ، وكانت هذه الزورة تتكرر في ليالٍ كثيرة حتى ألفتها نفسُه، وصار يترقبُها ويتهيأ

لها بالنوم، يقول :

كأنه جـــاء منجزًا عـــدة ويت فى الراقبين أنتظـــرُه

ويقول:

أطلب النوم كى يعود غراره بخيال يحلو لدىّ اغتـــرارُه

إذ كان يتمنى النوم ليلقى الطيف، مما يكشف عن استعداد نفسى، وتلهُّف، وإصرار على لقاء الطيف فى عالم الرؤى، وهو عالمٌ بديلٌ من وحى الخيال، هروبًا من الواقع.

كما يكشف الشاعرُ عن نفس مضطربةٍ من خلال حديثه عن الهموم، والأرق، والمعاناة، فيأتى ذكرُه للطيف محاطًا بحديثٍ عن إصابته بتلك المؤرقات الليلية التى لم يعد الشاعرُ قادرًا على احتمالها، كقوله[٢٥] :

أمـــا الخيـــالُ فإنه لم يطرُقِ إلا بعَقْبِ تَشـــوُّفٍ وتَشـــوُّقِ

قد زارَ مِنْ بُعْدٍ فَبرَّدَ من حشًا ضَـــرِمٍ، وســـكَّنَ من فُؤادٍ مُقْلَقِ

وقوله :

أخيالَ علوة كيف زرت وعندنا أرقٌ يشـــرِّدُ بالخيـــال الزائرِ؟

إن الشاعر بهذا يقف بين الطيف والواقع، بصورةٍ تكشف عن التمزق النفسى الذى كان يعانى منه، مما يؤكدُ الفجوة العميقة بين الحلم والواقع، ويكررُ الشاعر وصفَ مثل هذه الليالى الطويلةِ، التى تبدو وكأنها كانت ثقيلة عليه لشدة طولها وكثرة همومها.

وإن كان البحترى يكرر فى مقدماته ذكر صاحبته علوة الحلبية، ويذكر اسمها فى وصف الطيف فى عدة مواضع أيضًا، فقد ذكر طروق أطياف محبوبات أخر: كسُعدى، وليلى، وظمياء، وأسماء، وماوية، وسعاد، والمالكية، وأم مالك، ولم بكر.

فربما كان اسم المحبوبة رمزًا يسقط عليه أحلامه، ويعلق عليه مثالياته المفتقدة فى واقعه، فيؤدى لديه الحلمُ الدورَ التعويضى لتستعيد شخصيته

توازنها فى مجابهة الواقع القاسى عليه.«فنطاق الرمزية متسع بعيد الاتساع، وليست الرمزية فى الأحلام إلا جزء صغير منه»[٢٦].

وقد تكون "علوته" هذه "علوةً متوهَّمة"، لأن الشاعر فى عملية الإبداع قد يكون الواقع دافعًا أو مثيرًا له، ولكن لا يكون صورةً حرفية لخيال الشاعر. كما تتحول المحبوبة لديه فى عملية الإبداع إلى صورة تخيلية مثالية، تعوضُ افتقاده للمثاليات فى واقعه، مما ألجأه لالتماس رؤى الأحلام[٢٧].

وعلى ذلك فلا يهمنا من "فتاة الطيف الشاعرية"- التى رسمها البحترى فى لوحات الطيف- من هى؟؟ بقدر ما يهمُنا كيف هى؟؟ كيف صوَّرَها شاعرُنا فى نصوصه ؟؟ وهذا ما نُعنى به من تحليل صورة الطيف فى شعر البحترى.

كان البحترى يلجأ إلى وصف الطيف من خلال قصة، كما يوردُ تفاصيل القصة. فيردِدُ غالبًا بُعدَ المسافة بينه وبين محبوبته،وعورتها مؤكدًا على صعوبة تخطى المكان الذى تجاوزه الطيف سارِيًا، كقوله[٢٨] :

إنَّ "رَيَّا" لم تَسْقِ ريًّا من الوَصْـ	ـلِ، ولم تَـدرِ ما جوى العشاقِ
بَعَثَـتْ طيْـفَهـا إلىَّ ودُونِـى	وَخْدُ شـهرَيْنِ للمَهَارِى العِتَاقِ

وقوله[٢٩] :

هذا الحبيبُ، فمرحبًا بخيالِهِ!	أنَّى اهتدى والليلُ فى سربالِه؟!
بل كيـف زارَ ونوبَةٌ مجهولةٌ	من سَـبْسَـبٍ قَفْرٍ تمورُ بآلِه؟!
سـارٍ تجاوز من خفاقِ "عالجٍ"	بُعْدَ المَدَى من سـهلِهِ وجبالِهِ
حتـى تقَنَّصَـهُ الكَرَى لتنيُّم	لولا الكَرَى لشـفَاهُ من بَلْبَالِهِ

وقد يذهب إلى بيان أثر الطيف فيما مرَّ به من البلاد، فجعله تارةً ينشرُ الطيبَ والعبيرَ فى الأماكن التى سرى خلالها إليه.

تطيبُ بمسراها البلادُ إذا سرت فيدعمُ رياها ويصفو نسيمُها[٣٠]

وصوَّره تارة أخرى ينشر النور، والخير المتمثل فى المطر، فجعل خيالها رسولا للشوق، ينشرُ الخير والبركة والنعمة عبر مسراه فى البلاد، قال:

جاءَ يسرى فأشرَقَتْ أرضُ "نَجْدٍ"

لسُـرَاهُ، وواصَلَ الغيثُ "نَجْدا"

لا تخيـــبُ البلادُ تخطِـــرُ فيها

رُسُلُ الشوقِ من خيالاتِ "سُعْدَى"[٣١]

وفى صورة أخرى لأثر الطيفِ يُظهره الشاعر قبسًا من نور يتوهجُ، يبدد ظلمات الليل، ويضيء دروبَ الصحراء وشعابها، ليس للشاعر فحسب، بل للقوافل التى تضرب فى الصحراء على غير هدى، فتهتدى بضوئه الساطع الذى شبهه بضوء البدر، فلا تضل طريقها، قال:

أهلاً بذلِكُمُ الخيـــالِ المُقبِـــلِ فَعَلَ الذى نهـــوَاهُ أو لم يفعَلِ

برقٌ سرى فى بطنِ وجرَةَ فاهتدَتْ بسَنَاهُ أعناقُ الركابِ الذُّلَّلِ[٣٢]

وقد يلجأ الشاعر إلى تصوير المتعةِ وملذاتِ اللقاء، فيحاول من خلال حديثه هذا أن يلتمس لقاءً تخيليًا بديلا عن اللقاء الحقيقى، يقول:

– إنا هـى مالت للعناقِ تعطَّفَتْ

تعطُّفَ أمْـلُودٍ من البَـــانِ مائدِ

إذا وصـلَتْنا، لم تَصِلْ عن تَعَمُّدٍ،

وإن هَجَرَتْ، أبدَتْ لنا هَجْرَ عامدِ[٣٣]

– فبات يُعاطينى على غيرِ رِقبةٍ

مُجاجةَ مَنْسُـــولِ الرُّضابِ بَـرُودِ[٣٤]

وفى الصورة التالية يتوهم لقاءً جسديًا، وعناقًا حارًا يروى غلته، يقول:

ولم أنْسَ إسعافَ الكَرَى بدُنُوِّها وزَوْرَتَها بَعْدَ الهُدُوِّ وما تَـــدْرِى

وأخْذِى بعِطْفَيْها وقد مالَ رِدْفُها بليِّنَةِ العِطْفَيْنِ مهضُومَةِ الخَصْـــرِ

عِنـــاقَ يُرَوِّى غُلَّتى وهو باطِلٌ، ولو أنَّه حَقٌّ شَفَى لَوْعَةَ الصَّدْرِ[٣٥]

وفى البيتين التاليين يشبه نشوته بلقاء المحبوبة طيفًا بنشوة الخمر، بل

جعلها تفوقها، وتتجاوزها حدةً، ولذةً، يقول:

بَرَّحَ بى الطيفُ الذى يَسْرِى ... وزادَنى سُكْرًا إلى سُكْرِى
ونشوةُ الحب إذا أفرطَتْ ... بالصَّبِّ جازَتْ نَشْوةَ الخمرِ[٣٦]

فقد كان الطيف يحل عنده فى النوم محل العيان والمشاهدة فى اليقظة، وهذا ما عبر عنه الشريف المرتضى بقوله فى مدح الطيف: «فتكون لذة الخيال فى حال تمثلها وتخيلها كلذة اللقاء الصحيح والوصال الصريح»[٣٧].

ويذهب الشريف المرتضى إلى تبرئة هذه اللذة من كل إثم أو عيب، يقول: «وأنه تمتُّعٌ وتلذُّذٌ لا يتعلقُ بهما تحريم، ولا يدنو إليهما تأثيم، ولا عَيْب فيهما ولا عار»[٣٨]، ومن الصوفية من يُلحق العيب بأصحاب الطيف -دون الإثم- على حد قولهم : «إن النوم لو كان مانعًا لهم لكان تخصيصُهم إياه بأنه يُريهم أحبتهم نقصًا بينًا فى مودتهم، فإن الحال إذا تمكنت لم تفترق الروحان، وإن اختلف الشخصان، فالمحب للمشاهد لصاحبه على كل حال، مستغن عن الاستعانة على إحضاره برؤية الخيال»[٣٩].

وإن كان الشاعر أبدى فى صُوَرِهِ شدة تلذُّذِه بزورة الطيف المتكررة، وتعلقه به وترقُّبه له وتهيؤه للقائه، بالتشوق للنوم وتفضيله الليل على النهار، لطروق الطيف ليلاً حيث صفاء الذهن واشتعال الوجد، ثم سعادته الغامرة بلقاء محبوبته طيفًا، فقد أتى بصور أخرى يُعبر فيها عن معنى جديد وهو أن طيفه هو يطرق المحبوبة أيضًا، بل ويتبادل الطيفان التزاور بينما الجسدان هاجدان. يقول :

تَهاجُرُ أمِمٌ، لا وَصْلَ يخلِطُـــهُ ... إلا تـــــزاوُرُ طيفيـــنا إذا هجـــدَا
وقد يُزيرُ الكَرَى من لا زيارتُـــهُ ... قَصْدٌ، ويُدْنِى الهوى مِنْ بَعْدِ ما بَعُدا
بِتْنا على رِقْبَةِ الواشِينَ مُكتَنِفَىْ ... صبابـــــةٍ نتشاكَى البثَّ والكَمَـــدا
إما سألْتَ بشـــخصَيْنا هُناك فقدْ ... غَابَا، وأما خيالانا فقد شَـــــهِدَا[٤٠]

وقال :

أهـــلا بزائرنـا اللَّمَّ لوانَّـــهُ ... عَـرَفَ الذى يَعْتَادُ مِنْ إتيانِـهِ!
جذلانَ يسمَحُ فى الكَـرَى بعناقِهِ ... ويَضَنُّ فى غيرِ الكرى بسَـلامِه
أتُريكَ أحلامُ الدُّجَى ذا لَوْعَـةٍ ... كَلِفَ الخُلُوعِ يَرَاكَ فى أحلامِهِ؟[٤١]

وقال :

ولم أر مثليـنا ولا مثل شـأننا ... نعذب أيقاظًـا وننعم هجـدا

وقال :

إذا ما تباذلنا النفائس خلتنـا ... من الجد أيقاظًـا ونحن نيـام

فيصور كل واحدٍ منهما ينعم منفردًا مع خيال صاحبه، فجعل طيف المحبوبة يهواه، ويتعلق به، كتعلق الشاعر به، ومن ذلك قوله متظرّفا: "أليف اصطفيه ويصطفينى"، "أهواه وهو يُعَيِّد النوم يهوانى".

إن صورة فتاة الطيف قد أتت لدى البحترى تفيض إشعاعًا وكأنه أحالها إلى طبيعة نورانية، إذ قرنها بالبرق وبالضوء وبالقمر، ومن ذلك يقول:

– خطرت فى النـوم منهـا خطرة ... خطرة البرق بـدا ثـم اضمحل
– قمر فى دجنـة الليـل يوفـى ... أم خيال من عند سُعدى يوافى؟
– أضرت بضوء البدر، والبدر طالع ... وقامت مقام البدر لما تغيـبا

وفى الصورة التالية نرى الشاعر وقد أشكل عليه التعرُّف على البدر وعلى الطيف، إذ رآهما متطابقين، فلا يمكنه بسهولة تمييز أحدهما من الآخر، يقول :

وإن بَخِلتِ فـلا وصـلٌ ولا صِـلَةٌ ... إلا اهتداءَ خيالٍ منـكِ زَوَّارِ
لأشـكَلَ القَمَرُ السَّارِى علىَّ فمـا ... بَيَّنْتُ طلعَتَهُ من طيفِكِ السَّـارِى
إذْ ضارَعَ البدْرَ فى حُسْنٍ وفى صِفَةٍ ... وطالَعَ البدْرَ فى وَقْتٍ ومِقْدَارِ[٤٢]

وقد تقدمت أبياته يصور فتاة طيفه، تنشر الضياء فيما تمر به من الأماكن، فتنير الدروب والمسالك للركبان المرتحلة، خلال مسراها إليه عبر الصحراوات.

إن وصف الشاعر لفتاة الطيف مقترنة بالقمر ليثير عدة تساؤلات!!! فهل قرنها بالقمر، لأن كليهما يسرى ويتجلى ليلا؟؟ أم لأنها تشبهه بياضًا وضياءً

واستدارة وجه؟؟ أم لأن القمر بما ينشره من الضوء يبعث الطمأنينة للركبان السائرة، ومحبوبته فى الطيف تؤدى نفس الأثر بما تبعثه من الطمأنينة فى نفسه؟؟ أم لكل المعانى السابقة مجتمعة؟؟

وعلى جميع الأحوال فقد كان البحترى يلقى طيفه ليلاً، فى إطار نورانى مشرق، خلال رؤياه المنامية حين يهجد جسده، وتتحقق له رهافة الحس، وصفاء المشاعر، واشتعال العاطفة، ومعاودة الذكريات فيتجلى له طيف صاحبته فى أجمل وأرق صورها الجسدية والمعنوية، ومن ذلك يقول:

قُلْ للخيالِ: إذا أردتَ فعاودِ ... تُسْنِ المسافةَ من هوىً مُتَبَاعِدِ
فلأنْتَ فى نفسى - وإن عَنَّيْتَنى ... وبَعَثْتَ لى الأشجانَ- أحْلَى وافدِ
باتَتْ بأحلامِ النِّيامِ تَغُرُّنى ... رُودُ التَّثَنِّى كالقضيبِ المائدِ
ضاهَتْ بحلّتِها تلهُّبَ خَدِّها ... حتى اغتدَتْ فى أرْجُوَانٍ جامِدِ[٣].

فوصفها بجدة الشباب لأن الرودة من النساء هى السريعة الشباب، وأنها ناعمة التثنى، رطبة التعطف، لينة الحركة، وفى البيت الأخير يصور حُمرة خديها التى يضاهيها رداءها الأحمر، فأتت الاستعارة فى تلهُّب معبّرة عن اللون الأحمر النارى المميّز للهَبِ.

وفى مطلع قصيدة أخرى يكرر وصفه لفتاة الطيف بالشباب المشرق، حتى انه شبههه هنا بالزهر المشرق المتفتح، كما يركز على حمرة الخدين وهى من دلالات الشباب والصحة- ويشبهها هنا بلون الورد الأحمر أو زهر الرُمان، كما أن الاستعارة (يكاد يدمى احمرارًا) تؤكد اللون الأحمر بقوة، يقول[٤]:

أطلبُ النومَ كى يعودَ غِرارُهْ ... بخيالٍ يحلُو لدَىَّ اغترارُهْ
كم تلاقٍ أراكَهُ من قريبٍ ... صِلةُ الطيفِ طارقًا وازديارُهْ
وهو فى حِلْيَةِ الشبابِ يُضَاهِى ... جِدَّةَ الروضِ مُشْرِقًا نُوَّارُهْ
صِبْغُ خَدٍّ يكادُ يَدْمَى احمرارًا ... وَرْدُهُ فى العيونِ أو جُلَّنَارُهْ

وفى صورة أخرى يصف فتاةً كاعبًا فى مقتبل الشباب، لا يتعد عُمرها أربعة عشر، طرقته فى الطيف، يقول :

طَرَقَتْنَا – وفى الخيالاتِ تُمْنى ... "أُمُّ بكرٍ"، فاسعفَتْ "أُمَّ بَكْرِ"
فى بُدُوٍّ من الشبابِ عليْها ... وَرَقٌ من جَديدِهِ المُسْتَعِيرِ
كَمَلَتْ أربعَ لها بَعْدَ عَشْرٍ، ... ومَدَى البَدْرِ أربَعٌ بَعْدَ عَشْرِ[٤٥]

فيذكر أنه تَنَعَّم بطروقها له فى الخيال، وقد بدت عليها دلالات الشباب تامًا كاملاً، إذ استكملت أعوامها الأربعة عشر، ويشبهها الشاعر متظرفًا فى البيت الأخير بالبدر، فى يومه الرابع عشر نضجًا وتمامًا.

ولا تخلو صورةٌ من ملامح جسدية لفتاة الطيف، كقوله :

– مهزوزة إن مشت لم تلف هزتها ... فى الخيزران، ولم توجد مع البان
– وليلتنا بالجزع بات مساعفًا ... يرينى أناة الخطو، ناعمة الصبا
– خيال يعترينى فى المنام ... لسكرى اللحظ فاتنة القوام

وقوله :

تقضِّى الصِّبَا إلا خيالاً يعودُنى ... به ذو دلالٍ أحوَرُ الطرفِ فاتِرُهْ
يجوبُ سوادَ اللَّيْلِ من عند مَرْفَقٍ ... ضعيفِ قوامِ الخَصْرِ سُودٍ غدائِرُهْ[٤٦]

فأتى هنا بصورة المحبوبة جميلة العينين، مرهفة الخصر، ذات ضفائر سوداء.

وفى الصورة التالية نرى صاحبته التى تطرقه مبتهجة، طروبًا، تعاوده فى سعادةٍ وشوق :

أمنك تأوب الطيف الطروب ... حبيب جاء يُهدى من حبيب !

ومن الصور الطريفة التى شكّلها البحترى فى وصف فتاة الطيف، أن صاحبته تزوره طيفًا وهى خائفة وَجِلة مذعورة :

وزور خيال بعد وهن ألم بى ... وأحشاؤه من فرط خيفته تهفو

فأجرى هنا على الطيف ما هو لصاحب الطيف[٤٧]، (أن أحشاءه تهفو من الخيفة)، على حد قول الشريف المرتضى.

ومنها أيضًا هذه الصورة التى تُضفى على فتاة الطيف طابَعَ البراءة:

وزائـــر زارَ من أعقَبْتِـــهِ ... يَميـــلُ وزنًا بأنبِهِ ذُعْرَةْ

فكان ذعرُه أرجحُ وأزيدُ من أنسه[٤٨].

ومن الصور الطريفة لصاحبة الطيف، صورة طيف الحبيبة وبرفقته أطياف لفتيات أخريات، فتحس بالبحترى وهو يصف تلك الأطياف، كمن يشاهد رؤى تمرُّ من أمامه، مما يؤكد أنه كان يلوذ إلى عالم الحلم من خلال الطيف، لينفصل عن واقعه الذى يرفضه، ولا يربطه به إلا التواجد المكانى، يقول[٤٩] :

مرحبًـا بالخيال منك المُطيف ... فى شموس لم تتصلْ بكسُوفِ!

وظباءٍ هيفٍ تجلُّ عن التشبيـ ... ـهِ فى الحُسْنِ بالظباءِ الهيفِ

والبحترى يشخّص فتاة الطيف، وكأنها حقيقة فى صوره. ولذلك فهو يلجأ إلى تصويرها تحذر الرقباء والواشين إذا طرقته ليلاً، ومن ذلك قوله:

-"بتنا على رِقبةِ الواشين مُكْتَنِفَيْ" ... صبابةٍ نتعاطى البَـثَّ والكَمَدَا

-"فبات يعاطينى على رِقبةِ العِدى" ... ويمزجُ ريقًا من جنـــاه بريقى

-"تخطـــى رِقبةَ الواشـــين وَهْنًا" ... وبُعْدَ مسافةِ الخَـــرْقِ المَجُوبِ

-"يؤرقنى إذا الرقبـــاءُ نامـــوا" ... أنـــاةُ الخطـــو فاتنةُ الدلالِ

-"يعزُّ على الواشين لو يعلمُونَها" ... ليالٍ لنا نـــزدارُ فيـــها ونلتقى

إن البحترى قد جعل صورة الفتاة التى تطرقه ليلاً فى الطيف تتسع لتحتوى معانى الجمال النقى، وتجمع بعذوبتها الرقيقة وشبابها الغضّ فى ازدواجية موفقة بين قوة الإغراء وصلابة الإباء والبراءة.

ولما عن موعد الزورة، فقد حدّده البحترى فى صوره. إذ كرر صورة

الطيف يسرى فى سواد الليل ويطرقه قرب الفجر، ثم يزول عنه الطيف بإطلالة الصباح، ومن هذه الصور :

– إذا نسيت هوى ليلى أشاد به
طيفٌ سرى فى سوادِ الليل إذ جنحا
دنـــا إلىَّ عـــلى بُعدٍ فـــارقنى
حتـــى تبلَّجَ ضَـوْءُ الصبحِ فانْضحا

– طارقٌ أرهَـقَ الزيـارةَ والصبـ
ـحُ مُطِلٌّ، أو قـــد دَنَـــا إطلالُـــهْ

– ألم بى وبياضُ الصُّبحِ منتظرٌ
قد رَقَّ عنه سَـــوَادُ الليـــلِ أو كادَا

– منـك طيـفٌ ألمَّ والأفقُ مـــلآ
نُ من الفجـــرِ واعتراضِ عمـــودهْ

– فلولا بياضُ الصبح كان تشبُّثى
بمطفَلِ غـــزالٍ بتُّ وهنَـــا أُغازِلُهْ
وكم من يـــدٍ لليلِ عِندى حميـدةٍ
وللصبحِ من خَطْبٍ تُـــذمُّ غوائلُهْ[1]

ويكرر البحترى استعاراته التشخيصية لليل: (يحملون الليل حتى تمزقا)، (سواد الليل إذ جنحا)، (كم من يدٍ لليل عندى حميدة)، (والليل فى سربالـه)، (قد رق عنه سواد الليل). مما يؤكد عنايته بالليل لأنه زمن لقاءه بطيفه الحبيب، كما يشبه سرعة الزورة بخطرة البرق، إذ يبدو وميضٌ فى السماء للحظةٍ ثم يختفى، وكذلك طيفُ الحبيبة، يقول :

خطَرَتْ –فى النومِ– منها خَطْرَةٌ خَطْرَةَ البَرْقِ بَدَا ثـــم اضْمَحَلْ

ويكرر صورة إطلالة الطيف عليه ملقيًا بالسلام، مُحاطًا بهالة من الضوء

للتاصع فى سرعة وعجلة. وكأنها ومضة من ومضات البرق السريعة الزوال :

يكاد وميضُ البرق عند اعتراضِه يُضيءُ خيـالاً جاءَ منها مُسَلِّماً

ويشبه سرعة زيارة الطيف فى البيت التالى بارتداد البصر :

أكـان الصِّبا إلا خيـالاً مُسَلِّما أقامَ كرجْعِ الطَّرْفِ حتى تَصَرَّما!

ومع بدايات الصباح الأولى يزول الطيف، وينتهى بانتهاء الحلم الجميل، الذى ساق للشاعر طيف محبوبته، خلال رؤياه المنامية، فتفارقه المحبوبة التى طرقته بمفارقته النوم :

يتـراءى والكرى فى مقلتى فـإنا فارقهـا النـوم بطل

ويورد الشاعر صورة الصبح ينتظر، ويتعجل الزيارة : (وأعجلها داعى الصباح المُثَوِّب)، (ألمَّ بى وبياضُ الصبح منتظرٌ) (والصُّبحُ مُطِلٌّ،أو قدْ دنَا إطلالُه).

كما يصور الشاعر ألم فراق الطيف من خلال صور مؤثرة، قال:

ألم تَرَ للبيْنِ كيف انْبَرَى وطيفِ البخيلةِ كيف احتُضِرْ

فالاستعارة فى (احتُضِر) تذكرنا بالموت، وكذلك العنف فى جذب الطيف من أحشاء الشاعر، الذى توحى به الاستعارة التالية فى (يخلج) ببيته:

فولَّتْ كأنَّ البيْنَ يخلُجُ شـخْصَهَا أوَانَ تَوَلَّتْ من حَشَاى وأضْلُعِـى

وفى الصورة التالية تُستثار عاطفتنا نحو الشاعر الذى يعانى من تكرار الفقد:

خـلا ناظرى من طيفه بَعدَ فَقْدِه فيـا عَجَبًا للدَّهْرِ فَقْدًا على فَقْدِ!

وفى ختام قصة الشاعر مع الطيف، وبعد ذكره لتفاصيل القصة إذا به يصطدم مرة أخرى بمرارة الواقع من خلال إدراكه لحقيقة طيف الخيال، وتأكده أن ما رآه كان مجرد طيف فى الخيال، وإدراكه أن الواقع كان أقسى من أن يبدده هذا الطيف، وأن الشاعر لا يزال باقيًا على حالِه، إذ لم يبق له من معايشةِ الطيفِ سوى الآلام والمعاناة التى خلّفها له فراقُ الطيف، ونقلتها الأبيات، يقول[٥٠]:

إذا ما الكرى أهـــدَى إليَّ خيالَهُ ... شفى قربُهُ التبريحَ أو نَقَعَ الصَّدَى

إذا انتزعَتْهُ من يَـــدَيَّ انتباهَةٌ ... عدَدْتُ حبيبًا راحي منِّى أو غَـدَا

ولم أرَ مِثْلينا، ولا مثـــلَ شأنِنا ... نُعَذَّبُ أيْقاظًا، ونَنعَمُ رُجَّـــدا !

فلا شك أن الاستعارة فى (انتزعته انتباهة)، وتمثيل النوم بالنعيم، واليقظة بالعذاب، لإيحاءٍ قويٍّ بالمعاناة التى خلفها فراق الطيف.

ومن ذلك أن البحترى ذمَّ الصبح لمفارقة طيفه، وانتهاء المُتعة به، قال[٥١] :

وليلةَ هوْمنا على العيس أرسلَتْ ... بطيفِ خيالٍ يُشبهُ الحقَّ باطِلُهْ

فلولا بيـــاضُ الصبحِ طالَ تشبُّثِى ... بعطفَىْ غَزالٍ بتُّ وهنًا أُغَازِلُـــهْ

وكم من يـــدٍ لليلِ عندى حميدةٍ ... وللصُّبْحُ من خَطْبٍ تُذَمُّ غوائـــلُه

فقد فضَّل الليل على النهار وجسَّم هذا المعنى باستعارة اليد المحمودة لليل، واستعارة العواقب المذمومة للنهار.

وإن كان الشاعر فى الصور السابقة قد صوَّر آلامَه ومعاناته إثر فراق الطيف. ففى الصورة التالية نشعر به أكثر إشراقا وامتنانا لطيفه الذى برَّد نار وَجْدِه، وهذا فؤاده القلق الملتاع، يقول[٥٢] :

أمـــا الخيـــالُ فإنه لم يطرُقِ ... إلا بعَقْبِ تشـــوُّقٍ وتشـــوُّقِ

قد زارَ مِنْ بُعْدٍ فَنَهْنَه من جَوىً ... ضَرِمٍ، وســـكَّنَ من فؤادٍ مُقْلَقِ

ولربما كان الكَرَى سَـــبَبًا لنا ... بَعْدَ الفِرَاقِ إلى اللقاءِ فَنَلْتَقِـــى

إن طيف الخيال بهذا المعنى يكون تعبيرًا رمزيًا للهروب من الواقع لفترةٍ ما، من خلال عالم بديلٍ من صنع الشاعر ووحى خياله، يلعب الرمزُ فيه الدور الأساسى، إذ الرمز يتفق وطبيعة الأحلام، يقول سجمند فرويد: «إن معرفة صاحب الحلم بالرمزية، معرفة لاشعورية، وأنها تنتمى إلى حياته النفسية اللاشعورية»[٥٣].

لقد لجأ خيال البحترى إلى ابتداع كثير من معانى الطيف، وصوره

اللطيفة، التى تؤكد تفوقه فيه على كل من سبقه ومن عاصره من الشعراء. ومن ذلك أبياته[٥٤]:

أما راعَكَ الحيُّ الحِلالُ بهجرِهِم ... وهـم لك غَدْوًا بـالتفرُّقِ أرْوَعُ ؟
بَلَى! وخيالٌ من أثيلَـةَ كلَّمـا ... تأوَّهْتُ من وَجْدٍ تعـرَّضَ يُطْمِـعُ
إذا زورةٌ منْهُ تقضَّتْ مـع الكَرَى ... تنبَّهْتُ مـن فقْدٍ لـــه أتفـــزَّعُ
ترى مُقْلَتِى ما لا تَرَى فى لِقَائـهِ ... وتسمَعُ أُذْنِى رَجْعَ ما لَيْسَ تَسْمَعُ
ويكفيك من حَقٍّ تخيُّلُ باطِـــلٍ ... تُرَدُّ به نَفْسُ اللهيفِ فتَرْجِعُ[٥٥]

فقد أراد الشاعر من خلال هذه الصورة الجميلة، الحالمة، الممتدة عبر الأبيات، أن يعبِّر عن معنى سعادته بالطيف أكثر من سعادته بالواقع، فبعد أن ذكر فى البيت الأول استحالة اللقاء بالمحبوبة لصعوبة تخطى المكان، وعبَّر عن مرارة البعد والفراق: (راعك، بالتفرق أروع) ينبِّه الشاعر أن طيف صاحبته يُلِح عليه كلما تراكمت عليه الهموم واللآلام والمعاناة، ويكشف الشاعر عن نفسه المضطربة بكل هذه الموزقات بقوله: "**كلما تأوهتُ من وجدٍ**"، منيدًا معنى الشرط، ثم يأتى فى جواب الشرط بما يفيد معنى استغراقه فى طيف الخيال هروبًا من واقعه المرير "**تعرَّضَ يُطمِعُ**".

واستخدامه أسلوب الشرط يدل على أن تجربة الطيف قد اكتسبت لديه تكثيفا شديدًا، حتى إن الطيف اكتسب ارتباطًا شرطيًا لديه، كلما تراكمت عليه الهموم والآلام ليلاً.

ويلجأ مرة أخرى إلى الارتباط الشرطى- فى البيت الثالث- فيعبر عن انتهاء زورة الطيف الجميل الذى تلذذ به حينًا ثم صدمته مرارة الواقع مرة أخرى، ويقينه أنه كان يعيش وهمًا كبيرًا بقوله : "**إذا زورة منه تقضَّتْ... تنبهتُ لتفزعُ**".

وفى البيت الرابع يُفسح الشاعر مجالاً واسعًا لخيال المتلقى، إذ يذهب فى تصوير سعادته فى عالم الطيف مع الحبيبة إلى مدى رحيب متسع لا يُحَدُّ، فيعبر إنه شاهد وسمع منها ما لم يكن بينهما أبدًا فى الواقع، وذلك بتكرار الاسم الموصول "ما". وإذ يعبر البحترى عن سعادة الحواس وتلذُّذها بالطيف "مقلتى، أذنى" فهو يقصد التعليل لراحته النفسية بلقاء طيف حبيبته.

وفى البيت الأخير يُعبر البحترى عن نفسه القلقة المضطربة، حتى لقد تساوى لديه الخيال والحقيقة "ويكفيك من حق تخيل باطل"، فقد صار يلتمس لقاءً تخيليًا خلال عالم الطيف الخيالى بديلاً عن اللقاء الحقيقى، الذى صار مستحيلاً فى عالم الواقع، والبحترى يُبدى بهذا المعنى يأسه الشديد من الواقع الذى لا رجاء له فيه، ويكسر الحاجز السميك بين الحلم والواقع.

وفى الشطر الثانى من البيت يؤكد لهفته وراحة نفسه وسعادته بطيف الخيال، الذى أسعده ومتعه فكأنه أمسك رمقه وأعاده للحياة، من خلال جملة الصفة:"تُرَدُّ به نفس اللهيفِ فترجعُ".

وربما كان هذا التشبيه، وما سبقه من معانى لذة الخيال بأبيات البحترى السابقة، هو ما قصده الشريف المرتضى فى أوصاف الطيف مدحًا، قال: يُعلِّلُ المشتاقَ المغرَم، ويُمسكُ رَمَقَ المُعَنَّى المُسْقَم، ويكون الاستمتاع به والانتفاع به، وهو زُورٌ وباطلٌ، كالانتفاع لو كان حقًا يقينًا، وهل فرقٌ بين لذةِ الخيَال فى حال تمثُّلها وتخيُّلها وبين لذةِ اللقاء الصحيح والوصال الصريح؟ وبَعْدَ زوال الأمْرَيْن ومُفارقة الحالَيْن ما أحَدُهُما فى فقدِ مُتْعَتِه وزوال منفعته- إلا كصاحبه»[٥٦].

ومن صور الطيف التى ابتدعها البحترى وجاء فيها سابقًا، وامتدحها النقادُ، تلك الصورة الطريفة التى قدمها الشاعر لزورة الطيف وقت الجد، خلال مناسك الحج، وهو يرتدى زى الإحرام، وقد فرغ من أداء بعضها فى عرفات، وينحدر منها صوب مكة لاستكمال الشعائر. وإذا بالطيف الزائر يطرقه من خلال نشاط

نفسى لاشعورى، كائن وكامن بأعماق الشاعر. ولكن الشاعر يتأبى أن يتمادى مع الطيف أو مع اللاشعور، ويتعجب من وقت الزيارة، بل من ملاحقة خيال صاحبته وإلحاحه عليه حتى وهو يؤدى مناسك الحج. ويذكر أنه يبعث فى نفسه الحنين إلى عهد الصبا بالشام حيث الطبيعة الجميلة، ولكنه صار الآن مشغولا بحاجاته وهمومه عن اللهو والعبث. قال البحترى[٥٧] :

أحْبِبْ إلىَّ بطيفِ "سُعْدَى" الآتى ... وطُرُوقِهِ فى أعجَبِ الأوقاتِ!
أنَّى اهتديْتَ لُخرْمين تَصَوُّبُوا ... لسُفوحِ "مكَّةَ" من رُبى "عرفاتِ"!
ذكَّرْتَنا عهْدَ الشَّآم وعَيشَنا ... بين القِنَانِ السُّود والهَضَباتِ
إذْ أنتَ شَكْلٌ مُخَالِفٌ ومُوافِقٌ ... والدهرُ فيك مُمانِعٌ ومُؤاتِ
لولا مُكاثرةُ الخُطُوبِ وتحتُّها ... من جانِبَىَّ لكُنْتَ من حَاجَاتى

وقد أفاض الآمدى ثناءً على هذه الأبيات حتى إنه فضّلها على أبيات قيس بن الخطيم المشهورة التى مطلعها :

أنَّى سَرَيْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ ... وتُقَرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ[٥٨]

ولا يخفى علينا براعة البحترى فى الصياغة اللغوية، فرغم تعجبه من طروق الطيف فى البيت الأول إلا أنه لا يستنكره، فهذا الطيف محبب إليه، ودلل على ذلك بأسلوب المدح "أحبب إلىّ"، وإن كان فى البيت الأول قد تعجب من وقت الزيارة، ففى البيت الثانى يتعجب من اهتداء الطيف إليه والتعرّف عليه -وقد ارتدى ملابس الإحرام واتجه مع حجاج بيت الله إلى مكة منحدرين من عرفات- باستخدام اسم الاستفهام "أنّى"، وفى البيت الرابع يلجأ إلى الطباق لبيان المتناقضات فى حياته بين الحلم والواقع "مخالف وموافق"، "ممانع ومؤات".

وفى البيت الخامس نرى صورة أحداث الدهر وهمومه تتكاثر حول الشاعر وترهقه: "مكاثرة الخطوب"، بل إنه يصورها معاول هدم تحت فى جنبيه لتقضى عليه، وذلك من خلال الاستعارة : "وتحتها من جانبىّ".

إن البحترى يتكئ على التصوير، ويستخرج طاقات اللغة فى الإيحاء، فيبدع أمثال هذه الصورة الطريفة. ومن ذلك أبياته التالية :

فـلا وصـلَ إلا أن يُطيـفَ خيالُهـا ... بنا تحتَ جُؤْشُوشٍ من الليل أسْفَعِ
ألَـمّتْ بنا بعـد الهُدُوّ فسـامَحَتْ ... بوصلٍ متى نطلُبْـه فى الجِدِّ تمنعِ
وما برِحَتْ حتى مَضَى الليلُ فانقَضَى ... وأعجَلَهـا داعـى الصَّبَـاحِ المُلَمّعِ
فولّت كـأن البَيْنَ يخلُـجُ شـخصَها ... أوانَ تولّـتْ من حَشَـاىَ وأضْلُعِـى
ورُبَّ لِقَـاءٍ لم يُؤَمّـلْ، وفُرْقَـةٍ ... لأسْـعَـاءَ لم تُحْـذَر ولم تُتَوَقَّـعِ
أرائـى لا أنفَـكُّ فـى كُـلِّ ليلَـةٍ ... تُعَـاوِدُ فيها "المالكيّـةُ" مضجَعِـى
أُسَـرُّ بقُـرْبٍ من مُلِـمٍّ مُسَـلِّمٍ ... وأشْجَى ببَيْنٍ مـن حَبيـبٍ مُوَدِّعِ
فكـائنْ لنا بَعْدَ النَّـوَى من تَفَـرُّقٍ ... تُزَجِّيهِ أحلامُ الكَرَى، وتَجَمُّـعِ[٥١]

تتضافر هنا الألفاظ مع الصياغة والصورة لتخرج قصة زورة للطيف، يبرز خلالها الشاعر أحاسيسه وسعادته بالطيف الذى طرقه، والليل أسفع، ويقصد السواد فى حمرة، وهذا يكون عند اقتراب الفجر. ثم ذكر أن خيال صاحبته ألمّ به بعد الهدو، فأفاد ارتياح الجسم بعد عناء، وصفاء الذهن من تأريق أول الليل، فانشغل فكره ووجدانه وخياله بالطيف، الذى استمر معه حتى تباشير الصباح الأولى "الصباح الملمّع"، حين يكون بياض الصبح ممزوجًا بسواد الليل قبل انتشار الضوء.

وفى البيت الثالث عمد إلى الإعراب عن سعادة الطيف أيضًا ورغبته فى ملازمته، من خلال الاستعارة "وأعجلها" فصاحبة الطيف لا تريد أن تبرح صاحبها، ولكن أعجلتها تباشير الصباح.

وفى البيت الرابع نتعاطف مع الشاعر ونشفق عليه من خلال الصورة، التى صور فيها ألم فراق الطيف، من خلال هذا التشبيه المعبّر عن عمق استغراقهما فى العاطفة. فكأن داعى الفرقة ينتزعها انتزاعًا ويجذبها من أعماقه، من وسط

احشائه ومن بين ضلوعه. فأتت الاستعارة فى"يخلج" مناسبة لمعنى التصاق الطيف بالشاعر، إذ لا يفارقه إلا كرهًا.

كما أن الكناية فى"تولت من حشاى وأضلعى" لها إيحاؤها المثير بأن الطيف وصاحبته قد تغلغلا فى أعماق الشاعر.

وكما أنه يعبر عن سعادته الغامرة بلقاء المحبوبة عبر الطيف لقاءً مفاجئا (لم يؤمل) فهو يعبر فى الشطر الثانى من البيت عن ألم الفراق، والإحساس بالفقد بعد استغراقه فى العاطفة مع فتاته فى الطيف وتمكنها منه، بأن الفراق أتى أيضًا مفاجأة غير متوقعة، إذ ينحسر الطيف مع تباشير الصباح. وفى الأبيات الثلاثة الأخيرة يصور الشاعر بمهارة الإحساس المستمر بتنازع الأحاسيس، كلما طرقته فتاته طيفًا :

"لا أنفك فى كل ليلة تعاود فيها المالكية مضجعى أسرٌ وأشْجَى".

فصوّر الحالة المستمرة التى تنتابه من الألم بعد السعادة كلما طرقته صاحبته طيفًا، وعبّر عن تكرار هذه الحالة من خلال (لا أنفك) والاستعارة فى (تعاود المالكية مضجعى). كما صوّر حالته فى سعادته: (أسرٌ بقربٍ من مُلِمٍّ مسلّم) إذ يسعده اقتراب صاحبته وسلامها له. كما يصوّر حالته فى حزنه ومحبوبته تودعه آن البين: (وأشجى ببين من حبيبٍ مُوَدِّع) وقد أفادت هذه المقابلة بين الحالين إبراز المتناقضات فى حياته النفسية: عند طروق الطيف وعند فراقه.

وفى البيت الأخير يُجمل الشاعر أحلامه أسبابَ همومه وآلامه من خلال الاستعارة (تُزْجِيه)، إذ أن أحلامه الليلية هى التى تقود إليه خيالات اللقاء والفراق.

ولا تخفى علينا الموسيقى الواضحة فى الجناس، خلال الأبيات، "ولّت، تولّت"، "مضى، انقضى"، "مُلِم، مسلّم"، "النّوى، الكَرَى" واستخدام الشاعر بكثرة للأضداد من خلال الطباق : "سامحت، تمنّع"، "لقاء، فرقة"،

أسَر، أشْجى"، "مُسلِّم، مودِّع"، "قرب، بين"، "تفرُّق، تجمُّع". والترادف الذى أتى فى "يؤمل وتتوقع" لإبراز مشاعره بين السعادة والشقاء. [٩]

وتستوقفنا أيضًا أبياتٌ للبحترى فى مطلع قصيدة يمدح فيها الفتح ابن خاقان، وينكر منازلته الأسد، وأتى فيها بصورةٍ رقيقةٍ لسريان الطيف، أعجبت النقاد القدماء[١٠]، قال :

أجِدُكَ ما ينفكُّ يَسْـــــرى لـ "زَيْنَبَا" خيـــالٌ إذا آبَ الظلامُ تأوَّبـــا
سَرَى من أعالى "الشّامِ" يَجْلُبُهُ الكَرَى ذُبوبَ نَسيمِ الرَّوضِ تجلُبُهُ الصَّبَا

فى البيت الأول هدف البحترى تقرير استمرار سريان الطيف إليه ليلاً: ففى الشطر الأول أفادت "ما ينفك" استمرارية الحدث وهو سريان الطيف ليلاً إليه، وفى الشطر الثانى جعل الارتباط شرطيًا بين طروق خيالها وقدوم الليل، ليفيد من البيت الاستمرارية، فكلما عاد الليل عاد طيفها يطرقه، ولا تخفى علينا الاستعارة الجميلة فى الفعل "يسرى".

وفى البيت الثانى أبدع البحترى فى تصويره سريان الطيف، إذ شبه الطيف يسرى ليلاً آتيًا من شمال الشام -وهو موطن المحبوبة- فيسعد به الشاعر وترتوى غلته، بالنسيم الرقيق المعتدل الذى يهب فيحيى الرياض وتنتعش به. فجعل سريان الطيف كهبوب النسيم، وسعادة العاشق بالطيف كانتعاشة الروض بالنسيم.

وكما أن النسائم الرقيقة تأتى الرياض خلال هبوب ريح الصبا، فالطيف يسرى ويطرق الشاعر خلال الليل، وقد أبدع البحترى حقا فى هذا التشبيه التمثيلى.

ومن أبياته التى استوقفتنا :

وانـى وإن ضَنَّت علـىَّ بودِّهـا ... لأرتـاحُ منها للخيـال المـؤرِّقِ
يعزُّ على الواشينَ لـو يعلمُونَهـا ... ليـال لنـا نـزدارُ فيهـا ونلتقـى
فكم غلَّـةٍ للشوق أطفأتُ حرَّهـا ... بطيفٍ متى يطرُقْ دُجَى الليلِ يطرُقِ
(أضمُّ عليـه جَفْنَ عينى تعلُّقـا ... به عند إجـلاءِ النُّعاسِ المُرَنِّقِ)[٦١]

فقد أتى البحترى بالبيت الأخير موفقا غاية التوفيق فى تصوير تشبثه وتعلقه وتمسكه بالطيف، عند انتهاء الليل واقتراب إفاقته من النوم؛ فيزيد من ضمّ الجفنين فى نومته عامدًا، طمعًا فى مزيد من الاستماع بطيفه الحبيب، فصور الشاعر نفسه مطبقا عينيه بإصرار على حلمه الجميل، يريد أن يحتفظ به، كناية عن سعادته وتلذذه بطيفه الأليف الحبيب، إذ كان فى رؤيا يلذُّها.

وإذا كان النقاد القدماء شبهوا شعر البحترى "بالسلاسل الذهبية"[٦٢]، فلا شك أن أمثال هذه الصور الرقيقة الجميلة المُعجبة، التى اخترعتها مخيلته المُبدعة فى الطيف، تعدُّ بمثابة القلادة من شعره.

ذكر القدماء أن أول من عبَّر عن معنى طروق الطيف شعرًا هو قيس[٦٣] بن الخطيم، وأنه سبق إلى معنى، كلُّ الناس فيه عيالٌ عليه[٦٤]، وهو قوله:

أتى سَرَيْتِ، وكُنْتِ غيرَ سَرُوبِ ... وتُقَرِّبُ الأحـلامُ غَيْرَ قَرِيبِ
ما تمنَعِى يَقْظَى فقـد تُؤتِينَـهُ ... فى النومِ غيرَ مُكَـدَّرٍ مَحْسُـوبِ
كانَ المُنَى بلقائهـا فلقِيتُهـا ... ولهَوْتُ من لَهْوِ امرىءٍ مكذُوبِ[٦٥].

كما يورد صاحب ديوان المعانى البيتين التاليين لعمرو بن قميئة[٦٦] فى معنى طروق الطيف، ويذكر أن من تلاهما من الشعراء قد استمدوا أكثر معانيهم فى الخيال منهما.

نأتْكَ أُمَامَةُ إلا سُـؤالاَ ... وإلا خيـالاً يُوافى خَيَـالا
خَيَالى يُخَيِّلُ لى نَيْـلَهَا ... ولو قَدَرَتْ لم تُخَيِّل نَوَالا[٦٧]

وقد ذكر النقاد أن أول من طرَدَ الخيال طرفة، فقال[٦٨] :

فقل لخيـــال الحنظلية ينقلب إليها، فإنى واصل حبل من وصل

وأن جريرًا أيضًا طرد الخيال فقال :

طرقتك صائدة القلوب، وليس ذا وقت الزيـــارة فارجعى بســلام

وأعجب من هذا قول الراعى الذى هجا الخيال، فقال :

طاف الخيال بأصحابى، فقلت لهم: أأم شـذرة زارتنى أم الفـــول؟

لا مرحبًا بابنة الأقيـــال إذ طرقت كأن محجرها بالقار مكحـــول !

كما عابوا على الأعشى أن دعا على الخيال، فقال :

هذا النهار بدا لها من أمرها ما بالها بالليل زال زوالها[٦٩]

وإن كان النقاد قد استجفوا معانى ذم الخيال، وعابوها على الشعراء السابقين على البحترى، فإنه لم يذم الخيال وإنما وصفه بالكذب، معبرًا عن معنى سعادته بالطيف رغم كذبه، ملوحًا إلى إدراكه أن عالم الطيف إنما هو عالمُ وهم وزيفٍ كبيرين، يقول :

– ويكفيـــك من حق تخيـــل باطـل

تـــرد به نفس اللهيـــف فترجع

– أرى كذب الأحلام صدقًا، وكم صفت

إلى خبر –أذنـــاى– غير صـــدوق

– يكـــاذبنـــى وأصدقـــه وداذًا

ومن كـــلف مصادقـــة الكذوب:

– لا ينـــى يوفد الحبيـــب إلينا

كذب الطيـــف ســـاريًا وغرور

وقد استحسن له النقاد أن أتى فى معانى الخيال بكل بارع وفصيح، كما استحسنوا له الغزارة الملحوظة فى ذكره الطيف، بمفتتح قصائده، أو خلال مقدماتها، ونسبوا إليه الفضل فى تنويع أوصاف الطيف واهتدائه إلى معان لم ترد عند غيره، حتى إنّ إبداعه فيه واشتهاره به ذهب مثلا فيقال: خيال البحترى[٧٠].

ومن طرائف معانيه فى الطيف ما استحسنه له الآمدى، أن شبه الزائر الذى زاره بالخيال لشدة فرحه وخوفه ألا يكون له حقيقة، قال[٧١]:

وزَوْرٍ أتانى طـــارقًا فحسِبْتُهُ ... خيـــالاً أتى من آخرِ الليلِ يطرُقُ
أقسِّـــمُ فيـــه الظَّنَّ طورًا مكذِّبًا ... بـــه أنَّهُ حَـــقٌّ، وطـــوْرًا أُصَدِّقُ
أخافُ، وأرجُو بُطْلَ ظَنِّى وصِدْقَهُ، ... فللهِ شَـــكِّى حين أَرْجـو وأَفْرَقُ!

وقال فى هذا المعنى :

حبيبٌ سَرَى فى خِفيةٍ وعلى ذُعْرِ
يَجُوبُ الدُّجَى حتى التَقَيْنَا على قَدْرِ
تَشَكَّكْتُ فيه من سُرورى، وخِلْتُهُ
خيـــالاً أتى فى النوْمِ من طَيْفِهِ يَسْرِى

ولنا أن نتساءل : هل نفسُ البحترى المتعلقةُ بالطيفِ لذهبته بعيدًا مع الخيال؟ حتى صار يتشكك فى زوْاره كما أورد بأبياته السابقة؟؟

ربما كانت كثرةُ استغراق الشاعر فى تجربةِ الطيفِ دلالة على نشاطٍ نفسىٍّ لا شعورى، يُسلِمُهُ إلى عالمٍ وهميٍّ من وحى خيالِهِ، يحقّقُ فيه الشاعرُ لنفسه وسيلة للخروج من مأزق المواجهةِ المباشرةِ مع الواقع القاسى. فتبرزُ له المحبوبةُ فى الطيفِ "فتتمثلُ قوةً هادية تنبع من داخل القلب، متجاوزةً، ينطوى لها الزمانُ ويتراجعُ أمامها المكانُ"[٧٢].

لقد برع البحترىُّ فى تصوير طيفِ زائرته الليلية، إذ هى صورةُ حاقزه الداخلى الذى كان يخرجُه من الأسى للبهجة، أو هى رمزُ إدراكِهِ لطموحاتِه فى تحقيق ذاتِه، فأتت صورةُ المحبوبةِ فى زورةِ طيفِها الليلى، تحفُّها مظاهرُ البركةِ والنعمةِ، ناعمة منعمة، تحيطها البهجة، وتزيّنها إخراءاتُ النشوةِ والإشباع، حيّةٌ لكنها تبعث له الأنسَ والفرحة، فكأنها عذراءُ قد تهيأت لعرس. فيحتضُن الشاعرُ خيال صاحبته بسعادةٍ غامرةٍ، وباستعدادٍ نفسىٍّ ذكىٍّ وقد ألقى بنفسه وبركبِهِ

وبراحلته في أعماق هموم ومخاوف ليلية بحثها الهلاك.

لقد نجح البحتري بلغته التصويرية، وبخياله الثري المكثف في تصوير مشاعر الدهشة واللهفة في استقبال طيفه، ونجح أيضًا في تصوير استمتاعه بمعايشة الطيف، وكأنه أدرك فردوسه المفقود، الذي رمز له بالمحبوبة.

كما نجح في التعبير عن مفاجأته بإفاقته من حلمه الجميل، ونعيمه بالرؤى الأليفة، ببزوغ ضوء النهار ... فإذا بالمحبوبة التي تجلت في رؤى الليل قد تسربلت بالسراب ... فيصور الشاعر مشاعر الفقد والأسى ببراعة أيضًا، من خلال رصده انتهاء زورة الطيف.

خاتمة

هذا البحث يتناول الطيف فى شعر البحترى -الدلالات والصور- ويهدفُ إلى رصدِ ظاهرة الغزارة فى وصفِ الطيفِ بشعر هذا الشاعر وإن المتأملَ لديوانه ليدهشُ لهذا الحشدِ الهائلِ من أبياتِ الطيف، مما يعدُّ ظاهرةً مميَّزةً فى شعره تستحقُ دراسة إغرائِهِ المتكرر فى معايشةِ طيفِ الخيال.

كما أن إبداعَه الفنى فى تشكيل صورةِ الطيفِ استحق أن نتوقف عنده لتحليل نماذج متميزة من هذه الصور الغزيرة: بملامحها، وأجزائها، وطرائقها، ودلالاتها.

فكان المنهجُ يعتمد على :

- رصد ظاهرةِ وصف الطيف فى شعر البحترى من خلال استخراج الشواهد الدالة عليها من ديوانه.
- تحليل الشواهد الشعرية، وتعليلها، والكشف عن دلالاتها.
- دراسة صورة الطيف لدى الشاعر، والكشف عن قيمتها الفنية.
- إثارة بعض التساؤلات عن تعليل شيوع هذه الظاهرة لديه، ومحاولة كشف رموز الطيف فى شعره.
- مع الاستعانة ببعض دراسات علماء النفس فى تعليل تكرار مثل هذه الظاهرة.

كما تناول المنهج دراسة وصفه للمحبوبة التى تطل عليه عبر طيف الليلى، كيف رسمها فى صوره؟ وما ملامحها؟ وهذه الزورةُ التى كان يرتقبُها فى نفسه، ويكرِّرُ ذكرها للطيف فى شعره! كيف كانت؟ وكيف تبدأ ؟ ومتى تبدأ ؟ ومتى تنتهى ؟ وكيف حالُهُ هو بعدها ؟

نتائج البحث :

١- محاولة تفسير ملازمة تجربة الطيف للشاعر فى كثير من قصائده، مما يكشف عن استعداد نفسى، وتلهُّف، وإصرار على لقاء الطيف فى عالم الروى، وهو عالم بديل من وحى الخيال، هروبًا من الواقع.

٢- تفسير بروز صورة المحبوبة فى الطيف أنه كان يمثل للشاعر بروز المعانى المثالية الجميلة، والقيم النبيلة التى افتقدها فى واقعِهِ الذى وصفه بتصيدته السينية -التى ألممنا بدلالاتها خلال البحث- فيكون الطيف بذلك قد أتى فى شعره رمزًا لمشاعره وعواطفه التى تكمن فى أعماق ذاته.

٣- رصد الدلالات النفسية للمحبوبة الشامية التى تطرقه طيفًا :

- فربما كان تعلق الشاعر بالطيف رحلة رمزية للماضى بلذاذاته، التى افتقدها الشاعر بعد أن تغرَّب عن الشام !!

- لقد أثبت البحث براعة الشاعر فى تصوير طيف زائريه الليلية، إذ هى صورة حافزه الداخلى الذى كان يخرجه من الأسى البهجة، أو هى رمز إدراكه لطموحاته فى تحقيق ذاته.

- وقد أثبت البحث قدرة الشاعر على توظيف اللغة، والخيال الثرى المكثف فى تصوير مشاعر الدهشة واللهفة فى استقبال طيفه، وتصوير استمتاعه بمعايشة الطيف ثم التعبير عن مفاجأته بإفاقته من حلمه الجميل، ونعيمه بالروى الأليفة، ببزوغ ضوء النهار ... فيصورُ الآلام والمعاناة التى خلفها له فراق الطيف.

الهوامش

(١) أبو على إسماعيل القالى البغدادى، الأمالى، مطبعة السعادة ١٩٥٣م، ج١، ص٢٢٦.
أبو إسحاق إبراهيم الحصرى القيروانى، زهر الآداب وثمر الألباب. المطبعة الرحمانية، ج٢، ص١٢٠.
(٢) أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى، الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى، تحقيق السيد أحمد صقر، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٨٢م، ج٢، ص١٦٧.
(٣) الشريف المرتضى على بن الحسين الموسوى العلوى "٣٥٥- ٤٣٦هـ"، طوف الخيال تحقيق حسن كامل الصيرفى، مراجعة إبراهيم الأبيارى، دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢م.
(٤) ابن رشيق القيروانى، العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، حققه محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الجيل- بيروت، ١٩٧٠م، ج٢، ص١١٩.
(٥) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى، ديوان المعانى. نشرته مكتبة القدسى، ج١، ص٢٧٦، ص٢٧٧.
(٦) طيف الخيال، ص٤.
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان، حققه محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة، ترجمة ٧٤١، ج٥، ص٧٤.
- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، ج١٣، ص٤٧٦.
- ياقوت الحموى، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربى- بيروت، ج١٩، ص٢٤٨.
(٨) الآمدى، الموازنة، ج١، ص٤.
(٩) ذكرها ابن خلكان علوة بضم العين، قال : ثم كان منه ما كان فى علوة التى شبب بها فى كثير من أشعاره، وهى بنت زريقة الحلبية، وزريقة: أمها، ج٥، ترجمة (٧٤١)، ص ٧٤.
(١٠) ديوان البحترى، تحقيق حسن كامل الصيرفى، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧م، ج٣، ص ٢٠٠٩.
(١١) نفسه، ج٢، ص١٠١٦.
(١٢) نفسه، ج٢، ص٢٢٤٧.
(١٣) ديوان البحترى، ج٣، ص١٩٣٢،
(١٤) ديوانه، ج٣، ص١٥٩٩.
(١٥) نفسه، ج٣، ص١٦٥١.
(١٦) ديوان البحترى، ج٢، ص١٣١٠
(١٧) السابق، ج٣، ص١٥٣٤.
(١٨) السابق، ج٣، ص١٤٦١.
(١٩) ج٢، ص٧١٧.
(٢٠) ج١، ص٣٦٣.
(٢١) ج١، ص١٩٦.
(٢٢) حسن كامل الصيرفى، مقدمة ديوان البحترى، ص٢٢.
د. عبد الحليم حفنى، مطلع القصيدة العربية ودلالته النفسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص٢٤٤.
(٢٣) ديوان البحترى، ج٢ ص١١٥٢.
(٢٤) مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة، دار المعارف ١٩٥١م، ص ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.
(٢٥) ديوان البحترى، ج٣، ص١٤٧٩.
(٢٦) سيجمند فرويد، محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، ترجمها: د. أحمد عزت راجح، راجعها : محمد فتحى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٢م، ص١٧٨.
(٢٧) انظر المرجع السابق، ص١٥٥.
(٢٨) ديوان البحترى، ج٣، ص١٤٦١.

(٢٩) السابق، ج٣، ص١٧٨٨.
(٣٠) السابق، ج٣، ص ٢٠٢٣.
(٣١) الديوان، ج١، ص٥٦٩.
(٣٢) الديوان، ج٣، ص١٧٤١.
(٣٣) الديوان، ج١، ص٦٢٢.
(٣٤) ج٢، ص٧٧٨.
(٣٥) ج٢، ص١٠٠٥.
(٣٦) الديوان، ج٢، ص١٠١٠.
(٣٧) الشريف المرتضى، طيف الخيال، ص٥.
(٣٨) السابق، ص٦.
(٣٩) أبو بكر الأصبهانى الظاهرى، كتاب الزهرة. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٣٢م، باب من فاته الوصال نعشه الخيال، ج١ ص٢٥٩.
(٤٠) ديوان البحترى، ج٢، ص٧١٧- ٧١٨.
(٤١) ج٣، ص١٩٨٨.
(٤٢) ج٢، ص٨٥٧- ٨٥٨.
(٤٣) ج١، ص ٥٥٠.
(٤٤) ج٢، ص٩٠٦.
(٤٥) ج٢، ص ٩٧٠.
(٤٦) ج٢، ص٨٧٧.
(٤٧) انظر طيف الخيال، ص٧٤، ٧٥.
(٤٨) السابق، ص٢٣.
(٤٩) ديوان البحترى، ج٣، ص١٣٦٣.
(٥٠) السابق، ج٢، ص٦٧٠.
(٥١) السابق، ج٣، ص١٦١٢.
(٥٢) وفى رواية "قد زار من بعد فبرّد من حشا" "ورواية أخرى" فسكّن من حشا"، الديوان، ج٣، ص ١٤٧٩.
(٥٣) سيجمند فرويد، محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى، ص١٧٧.
(٥٤) أتت الأبيات خلال مقدمة قصيدته فى مدح أبى عيس العلاء بن صاعد، الديوان، ج٢، ص١٢٦٨ ومطلعها :

أحاجيكَ هل للحُبِّ كالدّار تجْمَعُ؟ وللحاتم الظمآن كالماء يَنْقَعُ؟

(٥٥) أورد الآمدى هذه الأبيات بكتاب الموازنة، ج١، ص١٣، وأثنى عليها قائلاً : «ولست أقول فى هذا إلا ما كان البحترى يقوله، وحدثنا به أبو على محمد بن العلاء السجستانى، إنه كان إذا شرب وأنس أنشده مثل هذه الأبيات وأشباهها من شعره، وقال : ألا تسمعون! ألا تعجبون!».
وكذلك أوردها الشريف المرتضى بكتابه طيف الخيال وأثنى عليها بأنها "تاسعة الجمال، بعيدة المثال"، طيف الخيال، ص ٢٨، ٢٩.
(٥٦) السابق، ص٥.
(٥٧) ديوان البحترى، ج١، ص٣٦٣.
(٥٨) الموازنة، ج٢، ص١٨٦.
(٥٩) الجوشوش : الصدر، الأسفع : الأسود، يخلج: ينتزع ويجذب، كتاب التشبيهات، ص٧٥، الأمالى للقالى البغدادى، ١/ ٢٦٦، الموازنة، ج٢، ص١٧٤، ديوان البحترى،ج٢، ص١٢٣٧.
(٦٠) ديوان البحترى،ج١، ص٩٦. وأورد ابن أبى عون الأنبارى البيتين بكتابه التشبيهات

وذكر أنهما من حسن التشبيه فى طروق الخيال، ص٧٥، كما أوردها ابن الشجرى فى حماسته، ص١٧٩ طبعة حيدر أباد، دون تعليق عليها تحت عنوان : باب الطيف والخيال، كما سجل الآمدى إعجابه بالبيت الثانى، قال: بيت فى غاية الحسن والحلاوة، الموازنة، ج٢، ص١٧٦.

(٦١) الموازنة، ج٢، ص١٧٥، ديوان البحترى، ج٣، ص١٥٠٨، ١٥٠٩، المرنق : الذى يغشى العينين.

(٦٢) أورد ابن خلكان : "وكان يقال لشعر البحترى : سلاسل الذهب، وهو فى الطبقة العليا"، وفيات الأعيان، ج٥، ترجمة "٧٤١" ص٧٤.

(٦٣) هو قيس بن الخطيم بن عدى بن عمرو، وهو شاعر الأوس، عاش فى الجاهلية، وأدرك الإسلام ولم يُسلم، وقتل قبل الهجرة، قتله الخزرج، ومن الناس من كان يفضله على حسان بن ثابت.
- ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، القاهرة ١٩٦٢م، ص٧، ٨.
- محمد بن سلام الجمحى، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدنى، القاهرة، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٢٨، ص٢٣١.
- أبو عبيد الله المرزبانى: معجم الشعراء، تصحيح وتعليق ف- كرنكو، مكتبة القدس، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م. ص٣٢١.

(٦٤) أمالى المرتضى للشريف المرتضى، دار إحياء الكتب العربية، ج١، ص٥٤١.

(٦٥) سريت أو سريت، غير سروب : غير مبعدة، مصرٌ أو مكثر
ديوان قيس بن الخطيم، تحقيق د. ناصر الدين الأسد، ص١٥، ١٦.
أبو هلال العسكرى، ديوان المعانى، نشر مكتبة القدس، ١٣٥٢هـ ج١، ص٢٧٦.

(٦٦) "هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، الشاعر المشهور، دخل بلد الروم مع امرىء القيس بن حجر فهلك فقيل له عمرو الضائع". أبو القاسم الآمدى، المؤتلف والمختلف، بتصحيح وتعليق ف-كرنكو دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢م. ص١٦٨.

(٦٧) يورد ابن الشجرى البيتين بكتابه الحماسة، ويذكر أن قيل إنه أول من نطق بوصف الطيف، طبعة حيدر آباد الدكن، ص١٧٥.

(٦٨) الآمدى، الموازنة، ج٢، ص١٨٨.
ابن عبد ربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ج٥، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٦٩) أى : أزاله كزواله.

(٧٠) أمال المرتضى، انظر ج١، ص٥٤٠: ٥٤٧.

(٧١) الموازنة، ج٢، ص١٨١، وانظر الشريف المرتضى، طيف الخيال، ص٨٨.

(٧٢) د. حسنة عبد السميع، أحلام الخيال الفنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص١٠٠.